بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 29 يناير 2019

المـــرأة واللـــغـــة

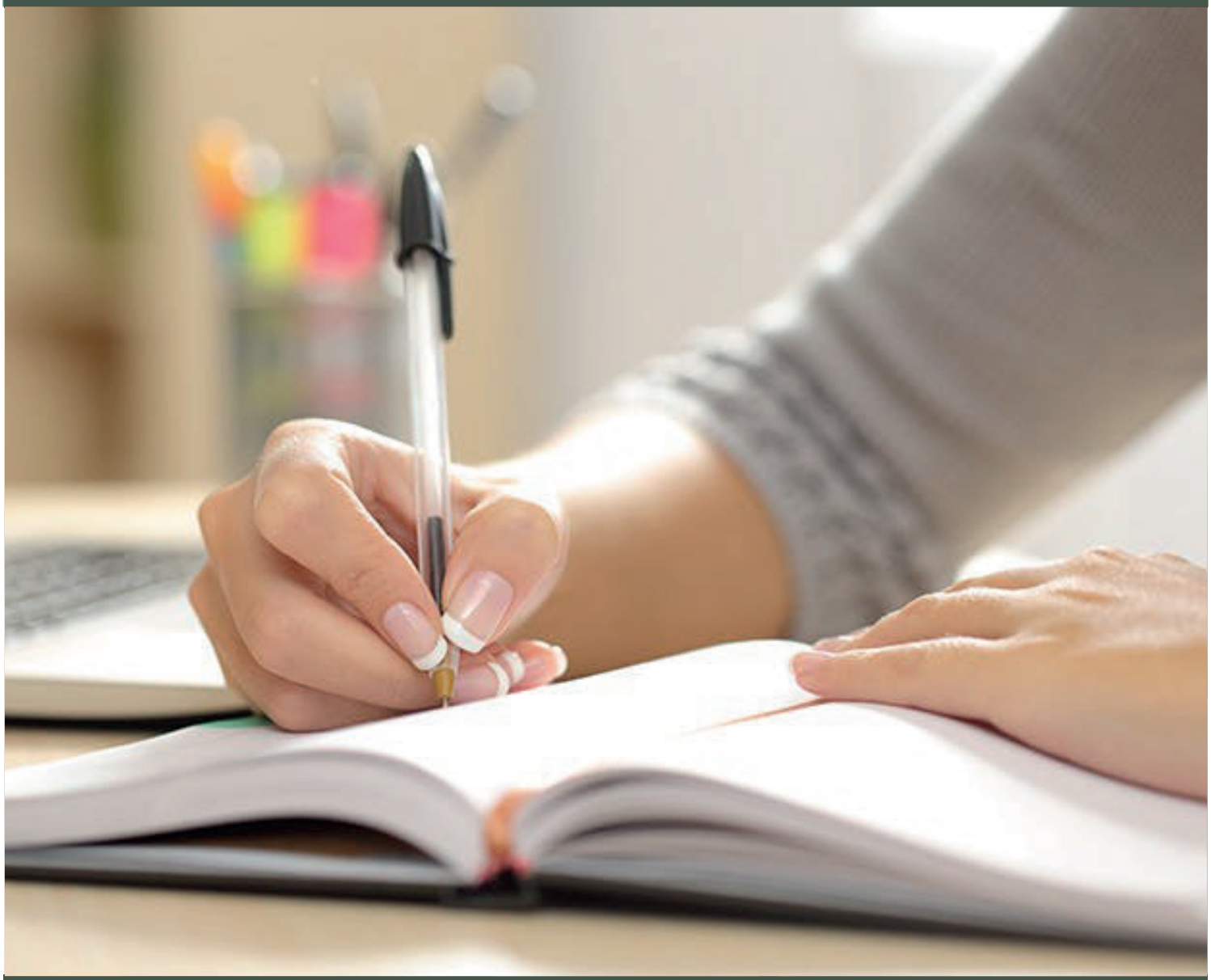

ثريا خربوش
باحثة مغربية

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019
All rights reserved © 2019

ملخص البحث:

يتلخص أهم ما سنتناول من قضايا في هذه المقالة في مقاربة لغة المرأة، والمواقف من هذه اللغة. نبين على مستوى المقاربات أن منها ما هو وارد، كونه يقارب لغة المرأة بناءً على اعتبارات تاريخية وثقافية واجتماعية، ومنها ما هو غير وارد، كونه، في إطار أحكام الضعف مغلوط، لا يقوم على الدليل التجريبي، وبصفته تجريبيا، يعاني من تضارب النتائج بسبب عيوب النصوص المرصودة، من جهة، وعدم اعتماد اللغة الوظيفية، من جهة أخرى. أما، فيما يخص المواقف، فنناقش مواقف الكاتبات من مصطلح «كتابة نسائية»، والنحاة من تخصيص المؤنث بالقياس إلى المذكر، والباحثين المهتمين بلغة المرأة، من حيث أسباب التأخر ونتائجه. نتبنى تأرجح الكاتبات بين قبول ورفض وجود لغة خاصة بالمرأة لارتباط الكتابة النسائية بالدونية والاحتقار والاضطهاد، وعدم توافق القواعد النحوية مع حقيقية التأنيث في اللغة، وأهمية تجاوز الأسباب المعيقة لتقدم لغة المرأة (المنع والاستخفاف) والنتائج المترتبة (القلق وتذكير اللغة). ونستدل على أن التجاوز، المقصود، يكون بتأنيث اللغة والقطع مع الذكورية القسرية.

1. تقديم

تطرح قضية المرأة واللغة عددا من المسائل، منها ما يتعلق بالمقاربات المُعالجة للغة المرأة وخصائصها، والفروق بينها وبين لغة الرجل، ومنها ما يتصل بالمواقف المحددة للأسباب والنتائج التي تفسر معاناة لغة المرأة من الحيف وعدم الإنصاف وأخذ ما تأخذه لغة الرجل من وضع اعتباري متميِّز. أما على مستوى المقاربات، فسنعطي فكرة عامة عن مقاربات الهيمنة والاختلاف والتفسير الاجتماعي، وتضارب نتائج المقاربة التجريبية، وأسباب ذلك. وأما فيما يخص المواقف، فسنعرض لموقف الكاتبات من مصطلح "كتابة نسائية"، وموقف النحاة من المؤنث، وموقف الباحثين من قلق واضطراب ينعكسان على اللغة النسائية ويُسقطانها في تبني لغة ذكورية بدلا عن لغة أنثوية تمثل الأنثى بخصوصياتها البيولوجية والفكرية، وبما يُشكل اهتماماتها وانشغالاتها وهمومها الخاصة.

نخصص القسم الثاني لمضامين المقاربات الواردة، وننعتها بالوارد، لأنها تُفسر مواقف الهيمنة الذكورية، واختلاف لغة المرأة عن لغة الرجل، باعتماد الواقع التاريخي أو الاختلاف الثقافي أو تباين توزيع الأدوار داخل المجتمع. مقابل ذلك، نفرد جزءًا خاصا لمقاربة الضعف بسبب ما تتضمنه من مغالطات، لا تقوم على الدليل التجريبي. وفي سياق الدليل التجريبي، نفسه، نتبنى بعض الانتقادات التي ترى في نتائج الأبحاث التجريبية تضاربا وتناقضا، يعود سببه إلى الافتقار إلى العينات الكافية، من جهة، وإلى عدم اعتماد اللغة الوظيفية، من جهة أخرى.

أما القسم الثالث، فنضمنه المواقف من لغة المرأة العربية، بصفة خاصة؛ نبين في مرحلة أولى، تأرجح موقف الكاتبات من وجود لغة نسائية خاصة بين القبول والرفض، وذلك من خلال مناقشتهن لمصطلح "كتابة نسائية"؛ وفي مرحلة ثانية، نوضح عدم تطابق موقف النحاة من المؤنث مع الواقع اللغوي؛ وفي مرحلة ثالثة، نتبنى المواقف المُفسرة لمشكل اللغة النسائية العربية، والنتائج المترتبة عن ذلك؛ وأما القسم الرابع، فنناقش فيه مواصفات التأنيث في لغة المرأة، وأهميتها في حل الإشكالات التي تطرحها لغة المرأة العربية التي لم تستطع بعدُ التحرر والانطلاق. ونختم المقالة بخاتمة تحصر أهم النتائج.

2. عن مقاربة لغة المرأة

1.2. مقاربات واردة

من المقاربات الواردة في تفسير مشكل اللغة النسائية: مقاربة الهيمنة والاختلاف والتفسير الاجتماعي والمقاربة التجريبية، وتجد مقاربة الهيمنة أسبابها في التاريخ والواقع الاجتماعي والأنماط الثقافية السائدة؛ فاختلاف لغة المرأة عن لغة الرجل بحسب نظرية الهيمنة، يرجع إلى أن النساء مجموعة ضعيفة مظلومة ومقموعة وخاضعة للرجال وتابعة ومنصاعة.[1] فالرجال، منذ الزمن الغابر والتاريخ القديم، فرضوا سيطرتهم على المرأة، وجعلوا منها كائنا خادما لهم، يسهر على راحتهم، ويبذُل الجُهد لإسعادهم. وهكذا، اعتبرت لغة المرأة ملحقة، لأن النساء ملحقات بالرجال، وهي مُشتقة من لغة الرجال، إذ لغة الرجال هي المنبع، وهي الأصل، وهي المصدر والنموذج والمثال. ولغة النساء خاضعة للغة الرجال، لأن لغة الرجال هي السيدة، والسلطانة: فيها الغنى والتجديد والإبداع والثبات، وذلك في مقابل لغة النساء، حيث يوجد الخنوع والتقليد والاتباع وعدم الثبات، وسرعة الزوال واللاقدرة على الدوام والاستقرار والفشل في التمكن من التركيب والمعجم والنطق والدلالة. إن الرجل حين يُهيمن، فمن المنطقي أن تُهيمن لغته، وهو حين يجعل المرأة كائنا تابعا وخانعا ومستجيبا لرغباتٍ غير رغباته وأحلام غير أحلامه، فطبيعي أن تكون لغة هذا الكائن، مثلَه، تعاني من التبعية والخنوع والخضوع، وتعبّر عن معنى غير المعاني الخاصة وأهدافٍ غير الأهداف الشخصيّة وأحلام غير الأحلام النسائيّة. وليس من الغريب، إذن، أن يظهر السعي في لغة المرأة إلى تقليد ومحاكاة أشكال لغوية غير أشكالها: أشكال ترمي إلى مشابهة لغة المُنتِج الصّانع، والكاتب القائل، لأن المُهيمن يولد لغة مهيمِنة، والمُهَيمن عليه يولد لغة مهيمَن عليها.

أما مقاربة الاختلاف، فترجع الفروق بين لغة المرأة والرجل إلى التبايُنات الثقافية؛ فالمرأة تولد بأعضاء تناسلية أنثوية، وتَنشَأُ وتتربّى على أن تكون امرأة في التفكير والتصورات والمعتقدات والسلوك، وطريقة معالجة قضايا النفس والآخر والحياة. ويأتي الرجل إلى الدنيا بأعضاء تناسلية ذكورية، ويخضع لتنشِئة الرّجل، يتصرف ويفكر كالرجال فيما يحيط به في المجتمع، وما يدور في التاريخ والماضي والحاضر والمستقبل. إن اختلاف ما يتعلم الرجل عما تتعلم المرأة هو ما يجعل ثقافة كل منهما مختلفة. ولعل الارتباط الوثيق للثقافة باللغة هو ما يفسر الانفصال واللاتماثل وانعدام التشابه بين لغة المرأة ولغة الرجل؛ ذلك أن علاقة الثقافة باللغة شديدة إلى حدّ أنه لا يمكن فصل هذه عن تلك، إذ اللغة وعاء الفكر والمعاني والمعتقدات؛ أي قالب الثقافة، والثقافة مضمون اللغة ومكنونها ومخزونها المُعبِّر عمّا نظن ونتصور ونتخيل ونعتقد.

1. نستفيد في صوغ مضامين هذه المقاربات، بتصرف، من: جنفير كوتس Jennifer Coates (2003)، ص. 5، وانظر كزيوفانك كزيا Xiofang Xia (2013)، ص. ص. 211 – 206

وحين تختلف الثقافة، يترتب عن ذلك اختلاف الفكر والتصورات والمذاهب والاتجاهات، وينعكس كل ذلك على اللغة، فتختلف، بدورها، ويتمثّل الاختلاف، ليس على مضامينها فقط، بل حتى على الأشكال والصور الحاملة للمضامين.[2] من هنا، وبالنظر إلى علاقة الثقافة بالمجتمع، واختلاف اللغة باختلاف الثقافة، يُتوقع أن تكون لغة المرأة مختلفة عن لغة الرجل، كما تختلف لغة المجتمع عن المجتمع الآخر، ولغة المدينة عن لغة القرية، ولغة منطقة الشمال عن لغة منطقة الجنوب أو الشرق أو الغرب وهكذا.

وأما مقاربة التفسير الاجتماعي، فتعد المقاربة الدينامية التفاعلية، لأنها ترى أن لغة كل من الرجل والمرأة تتفاعل مع المجتمع؛ أي إن المقولات المجتمعية السائدة هي التي تفسر خصائص لغة هذ الجنس وذاك، وتُحدّد الأنواع والأصناف والأشكال والطبيعة.[3] فلغة المرأة إذا كانت مختلفة عن لغة الرجل، فذلك لأن المجتمع يُسند للنساء أدوارا وللرجال أخرى. والملاحظ أنه في كل المجتمعات تقترن الوظائف المُسندة للمرأة بالبيت وتربية الأطفال والحياة المجتمعية البعيدة عن الوظائف الرسمية الراقية والعالية. مقابل ذلك، ساد، منذ القدم، أن الرجل ركيزة المجتمع، فهو الذي يتحمّل مسؤولية إدارته، وهو الذي يقوم بالوظائف على مستوى المناصب الحكومية والمهام الرسميّة ذات القيمة المجتمعيّة الرفيعة، والمهن والخدمات الاقتصادية والسياسية والرياضية المرتبطة بالمستويات الوطنية والمحليّة الواسعة، والدُّولية الأوسع؛ أي إن اللغة، بحسب مقاربة التفسير الاجتماعي، تتحدد بالنظر إلى طبيعة الوظائف المسندة، وتنقسم بانقسام المهام والمناصب والأدوار؛ فاللغة الرفيعة العالية المتميزة المقترنة بالتعبير عما هو راقٍ ورسمي ومتطور ومتقدم، هي طبعا اللغة الذكورية. أما اللغة الدونية السُفلى المرتبطة بتمثيل القضايا الحسيّة، وبتفاصيل الحياة اليومية البسيطة، فهي اللغة الأنثوية. بعبارة أخرى، إن اللغة، في سياق التفسير الاجتماعي، تعلو علو صاحبها في المجتمع وتهبط هبوطه.

2.2. مقاربة الضعف

تُقارَب لغة المرأة بالضعف، بحسب الأشكال اللغوية المُستخدَمة، [4] ومن ذلك الصفات الفارغة مثل: (رائع، فاتن، ساحر، جذّاب، جميل)، والظروف التي لا تعبّر عن الحسم والدقة من قبيل: (نوعا ما، إلى حدّ ما، بكيفية ما)، والألوان المُشيرة إلى مستجدّاتِ الموضة، ومنها، بصفة خاصة، تلك المُقتبسة من اللغة الفرنسية: (الخزاميّ، الكموني، البيج، التيركواز، الذهبي، البنفسجيّ، الزبرجدي، الأرجواني، الأزرق السماويّ)،

2. انظر ص.، 9 – 12 من خربوش ثريا (2017)

3. انظر ص. ص. 87 - 89 من كزيولان لي Xiaolan Lei (2006)

4. انظر جنفير كوتس Jennifer Coates (2003)، وكزيوفانك كزيا Xiofang Xia (2013)، الصفحات السابقة نفسها.

والألفاظ الدّالة على الحبّ والعاطفة ومثالها: (صغيري، عزيزي، حبيبي)، والكلمات الحاملة لمعنى التصغير من نموذج: (كتيِّبي، سُريِّلي، حُبيّبي، عُزيِّزي)، وما يحيل على التأدّب والتهذيب من عبارات مثل: (شكرا، من فضلك)، والأفعال المساعدة المُتضمّنة لدلالات الافتراض والاعتقاد والشك والتخمين والتساؤل والاحتمال والإمكان والترجيح، وذلك كما في: (أتساءل، أفترض، أشك، أعتقد، هلا ساعدتني، أرجّح، أتوقع، أتصوّر)، وتعابير التخفيف كما في: (لنفعل كذا، أي ما يقابل صيغة: (let's do) في الإنجليزية)، والأسئلة الملحقة و/ أو الذيلية (tag questions) المُتمّمة للكلام من مثل: (أليس كذلك؟)، ونطق الكلام باستعمال طبقات صوتٍ عالية، مقاومة للخجل وطلبا لإثبات الذات وتغطية لعدم الاستقرار العاطفي، وتوظيف ضمير المتكلّم (الأنا) المُعبّر عن التمركز الذاتي (androcentric)، وعن القلق والاكتئاب.

إن هذه الأمثلة، المُستخدمة في اللغة النسائية، تجسد ضعف لغة المرأة، على مستوى المعجم والتركيب والنطق، ويرد مُتَبنّو مقاربة الضعف ذلك لأسباب نفسية تتعلق بشخصية النساء وما يتّصفن به من خوف وخجل وقلق وعدم ثقة في النفس. فهم يعتبرون المرأة كائنا يتسم بالسطحية والتفاهة، ويستدلون على ذلك بما تميل النساء إلى مناقشته من أمور، يتصل أغلبها، بالبيت والعائلة والطبخ وتربية الأطفال. بعبارة أخرى، يمكن القول إن ضعف لغة المرأة يعود، ضمنيا، إلى ضعف المرأة نفسها، وهو ما يُفسر إنتاجها للغة ليس فيها ما في لغة الرجل من قوة التراكيب والكلمات والأصوات.

تعد لغة المرأة، إذن، في تصور الضعف، تافهة وخالية من المعنى، وهشّة لا تعالج القضايا المهمة، بل تدور حول ما هو بيتي، وهي غير حاسمة، إذ لا تنمّ عن القوة واتخاذ القرارات، بقدر ما تنمّ عن الشك والإحساس بعدم الجدوى والإفادة. كما أنها أشكال لغوية تهدف إلى تخفيف الضغط وإبداء الاحترام والانصياع والطاعة ومراعاة شعور الآخرين وتقديرهم وعدم خدش مسامعهم باللفظ الغليظ أو الحاد أو الصلب أو الموحي بالجزم والقطع وعدم التردد.

ونظرا للضعف الملصَق بشخصية المرأة، فهي في اللغة، لا تقدر على أخذ الكلمة كما يفعل الرجل، ولا تقسم كما يُقسم، ولا تستخدم الظروف القاطعة كما يستخدم: (تماما، مثلا، وأبدا ومطلقا)، ولا تكتفي بالألوان المعروفة كما يكتفي (الأسود والأبيض، مثلا، والأخضر والأزرق). فالرجل لا يحتاج إلى إتمام كلامه بالاستفهام القصير الملحق، ولا الجمل المعبرة عن التردد أو الشك أو الافتراض أو التخمين أو الترجيح، لأنه واثق من نفسه، ولا يخاف، بل يصوغ أفكاره بلغة قوية، وينتج لغة أقوى تتسم بالتجديد والغنى، وتعكس الإحساس الشخصيّ والنفسيّ بالسلطة وعدم الخجل وعدم الحاجة إلى مقاومة أيّ نوع من الضغوط الخارجية: إنّه، بعكس المرأة، قويّ بلغته، ولغته قويّة به، وصيغة الأمر صيغته، وألفاظ الطلب المباشر

ألفاظه، والاستفهام المباشر استفهامه، ونطق الصوت بطريقة منخفضة، غير عالية، نطقه، إذ لا يحتاج إلى رفع صوته، كما تحتاج المرأة. إن الرجل هو صاحب الثقة والسلطة، وهو الذي لا يفتقر إلى الأشكال اللغوية الدّاعمة أمام الآخرين وأمام النّفس. لهذا تجده يستعمل ضمير الجمع عوض (أنا)، ويؤكد بذلك عدم معاناته لما تعانيه المرأة من مسبِّبات (الأنا المُعَذّبة)؛ أي القلق والاضطراب والاكتئاب والتمركز الذاتي، فهو لا يستعمل لغة المجاملات والتهنئات، مثل المرأة، بل لغته لغة الشتائم، إذا أراد أن يشتم، والآراء والمذاهب والتعابير والتفكير، إذا أراد إبداء الرّأي والمذهب والتعبير والفكر.

اللغة النسائية ليست باللغة التي تهدف إلى السيطرة، لأن اللغة شيء صنعه الرجل وصيغ لحاجاته، ولذلك، فقد جاءت على لسانه معقدّة وثقيلة، تتسم بالبلاغة والكثافة. فالرجل يتشدق، لأنه لا يهتم بما يدل على الحميمية والتضامن والتأدّب، كما تهتم المرأة، وهو لا يحتاج، كما تحتاج المرأة، إلى ما يُضعف المعاني والمحتويات من المُكملات وعبارات المبالغة والاعتراض، وغير ذلك مما مُثِّل لشيوعه في لغة النساء. وبخلاف ذلك، تعاني المرأة من نقصان الثقة بالنفس، وعدم القدرة على تحمّل المسؤولية، والشعور بأن مخاطَبها لا يأخذ لغتها على محمل الجدّ. فالسؤال القصير، مثلا، يدل على عدم تؤكدِ طارحه مما يُثبت أو ينفي، واستخدام الأسماء أكثر من الأفعال سببه طبيعة الجنس، إذ إن التعبير بالأحداث عند الرجال يُفضي إلى سيطرة فاعلة، في حين يعني التعبير بالأسماء لدى النساء القبول والالتزام. وإذا كان الرجال يستعملون الأفعال المتعدية وأفعال الحركة والنشاط، فذلك لأنهم ينحون إلى الفعل والسيطرة بعكس النساء اللواتي يملن إلى أفعال السكون واللزوم، كونهن أميل إلى عدم الحركة وعدم النشاط. وكذلك تستخدم النساء الجمل المفتوحة، إما لأنهن يعانين من القلق والاضطراب وعدم الثقة في النفس والسكون والتردد والضعف، وإما لأنهن متأدبات ومُهذّبات يسعين إلى الانفتاح والاندماج والتفاعل والإقناع والتنويع وعدم فرض الرأي والتعصب.[5] وعموما، كل الأحكام المُطورّة في مقاربة الضعف مغلوطة، لأنّها أوهام لا تقوم على الدليل التجريبي، إلا أن ما ورد منها في المقاربة التجريبية، يعد بدوره، غير كافٍ، وذلك لأسباب نذكر بعضها فيما يلي.

3.2. تضارب نتائج المقاربة التجريبية

عرفت دراسة لغة المرأة في الغرب تطورا كبيرا، وذلك منذ سنة 1975، وهي السنة التي نشرت فيها روبين لايكوف عملها الرائد المُعنون ب: اللغة ومكانة المرأة (language and woman's place). ولقد تمثل التقدم في الدراسة التجريبية وما عرفته من كثرة وكثافة، لكن النتائج التي وصل إليها الدارسون

5. انظر في خصائص لغة المرأة المتميزة، إما بالنقص لأسباب تعود لضعفها كالخوف أو بالقوة لما تتميز به من خصال، كالتأدب والتهذيب ومراعاة شعور الآخرين: عيسى برهومة (2002) ص. ص. 122 – 129

التجريبيون غير صحيحة في كل أحوالها، ولا يمكن الأخذ بها، إذ رغم سعيها لإعادة النظر في تصورات الضعف المغلوطة، بناء على البحث التجريبي الذي يُقارن بين لغة الجنسين، فإنها ظلت تعاني من التناقض والتضارب وعدم وضوح الصورة.[6] فمن مؤكد لضعف لغة المرأة، ولما توظفه من أشكال لفظية وصوتية وتركيبية ومعجمية ونحوية ودلالية، ومن معارضٍ لذلك.

فمن المُحققين من بيّن، من خلال تحقيقاته، أن لغة النساء مختلفة، فعلا، من الناحية العاطفية والنفسية، وأكدوا ذلك بكون الجنس الأنثوي، مقارنة مع الذكوري، يُوظف الاستفهام الملحق، مثلا، وأحيانا يُلحق علامة استفهام على أشياء بيِّنةٍ وواضحةٍ؛ كما دعّموا استعمال الإناث للظروف المعبرة عن الضعف اللغوي، والعناية بالألوان والتمييز الدقيق بينها، ومعالجة القضايا السطحية والمسائل المنزلية، والعجز عن أخذ الكلمة في السياقات الرسمية، والتكلّم لأجل التكلّم، لا لأجل نقل المعلومات، والميل إلى الخطاب اللغوي المُجامل والمُهذّب والمُحترم للغير والمُراعي لشعور الآخرين، إلى غير ذلك من الأمثلة التي تدل على ضعف لغة المرأة، وضعف المرامي منها والأهداف، واتسامها بعدم العمق والافتقار إلى الموضوعية، وغير ذلك مما مثلنا له في الفقرة السابقة.

مقابل تأكيد ضعف لغة النساء، بينت أخرى العكس، واستخلصت أن لغة الرجال هي ما يتضمن الاستفهام الملحق، والضمير: (أنا)، والأساليب النفسية الدالة على عاطفة العنف والغضب. وهكذا، وقف دارسون موقف المؤكد للضعف في لغة الرجل لا لغة المرأة، وساوى آخرون بين اللغتين، واعتبروا أن ما يشيع من أحكام حول الاختلاف، إنما سببه الصور النمطية السائدة عن المرأة والرجل؛ أي إن الأسباب لا تعود إلى اللغة نفسها، فلغة المرأة تعتبر ضعيفة نظر للتصور السائد الذي يُصوّر المرأة ضعيفة، مقابل ذلك تعد لغة الرجل قوية لاقتران الرجل في الذاكرة الجماعية بالقوة.

غير أن الأسباب الحقيقية وراء التضارب والتناقض في المواقف من اللغة النسائية هو اعتماد المحققين لنصوص صغيرة، من حيث عدد العينات وحجمها وتنوعها، من جهة، وعدم دراسة اللغة الوظيفية، من جهة أخرى؛ أي اللغة الحاملة للمعنى كالأفعال والأسماء والصفات، وتمييزها عن غير المتضمنة للمعنى كالحروف والأدوات والضمائر والأفعال المساعدة؛ ذلك أن اللغة الوظيفية هي التي تعكس وتمثِّل طرائق التفكير وتَمَثُّلَ الناس لأنفسهم وللواقع من حولهم. فاستعمال الضمير (أنا) أو (أنت)، مثلا، عوض (نحن) يعبر عن علاقة معينة يعقدها المتكلم مع الآخر، ويجب البحث في هذه العلاقة داخل سياق الكلام، عوض النظر إلى الضمير منعزلا، وربطه بمعاني معزولة، كذلك، كالاكتئاب والقلق والاضطراب النفسي. الكلمة

6. نستفيد في بلورة فكرة التضارب من ماثيو نيومان وآخرون (2008) Mathew L. Newman and others:. ص. ص. 212 – 213

الوظيفية هي التي تُحدد المعنى والفكر، وتتسم بالشيوع في المحيطات المختلفة، وتتنوع بتنوع الحاجات والأغراض والفئات العمرية والمجالات والفضاءات الزمانية والمكانية، وغير ذلك مما يتوارد ويتواتر ويتوزع بحسب الموضوعات والمحاور والاهتمامات الثقافية. أما الأفعال المساعدة والحروف والأدوات والمؤكدات والمكملات، فتأتي بحسب مُتطلبات التركيب، وبالنظر إلى ما يفرضه السياق الوظيفي. فجملة مثل: (أنا ذاهبة إلى الرباط)، اقتضت الضمير المتكلم الذي يقتضيه سياق الحديث عن النفس، بصفتها الذات المسافرة، كما أن الحرف (إلى) يتطلبه اتجاه السفر كمسار، وهكذا تتغير الجمل والتراكيب بحسب المعاني والدلالات. بعبارة أخرى، إن ما يحكم صيغ التراكيب وبناءاتها مرتبط بالدلالة والتصور، ولا يمكن فصل أشكال اللغة عن مضامينها ومعانيها.

3. اللغة والمرأة العربية

لن نعرض، في هذا القسم، للغة المرأة العربية، من حيث الخصائص التركيبية أو الدلالية أو الصرفية أو الأسلوبية، بل من جهة المواقف المُتَّخذة من اللغة النسائية. ففي الجزء الفرعي الأول، نبيِّن موقف الكاتبات من اللغة، وذلك بتتبع مناقشتهن لمصطلح «كتابة نسائية» ومدى تعبيره عن وجود لغة كتابة خاصة بالمرأة. سنبرز تأرجح المواقف بين القَبول، اعترافا بالخصوصية ومشروعيتها، والرفض، اعتراضا على ربط ما هو «نسائي» بالدوني وغير الراقي والسلبي. وفي الجزء الفرعي الثاني، نستدل على عدم تطابق قواعد النحاة الراصدة لخصائص التأنيث مع واقع اللغة، فمثلا، تذكِّر القاعدة الفعل، وإن كانت فاعلته أنثى، ولا تسمح بعلامة التأنيث في المؤنث المفعول، إلا إذا تضمن معنى الفاعل، وتفرض تبعية المؤنث فرضا، باسم الوصفية، وعدم تبعية المذكر، باسم الإسمية. أما الجزء الفرعي الثالث، فنخصصه لموقف الباحثين العرب من اللغة النسائية، حيث سنتبنى منها، بالتحديد، موقف محمد عبد الله الغذامي، ونبرز من خلال دراسته عددا من الأسباب والنتائج المُفسِّرة لتأخر اللغة النسائية العربية، ومن الأسباب نطور المنع والاستخفاف. أما على مستوى النتائج، فنبلور القلق وتقمص لغة الذكر. أما القسم الرابع، فنجعله مستقلا، وإن كان تابعا لسابقيه، لأنه يُمثل لتصور واعدٍ، يعد بلغة مؤنثة متطورة، تنعم بالتحرر من اللغة الذكورية، وتعبر عن ذاتها الأنثوية دون مركب نقص أو شعور بالدونية أو الخوف أو الاضطراب.

1.3. الموقف من الكتابة النسائية

يبدو أن الأسباب الكامنة وراء غياب الاهتمام بلغة المرأة العربية، من حيث طبيعتها وما يميزها من خصائص، بالنظر إلى لغة نظيرها الرجل، أن البحث لم يتجاوز بعد قضية مصطلح «كتابة نسائية» وما

يطرحه من تساؤلات حول وجود «كتابة خاصة بالمرأة»، وعن مشروعية هذه الكتابة، إن وُجدت، وجدوى تمييزها عن كتابة الرجل أو عدم الجدوى من ذلك، وموقف الكاتبات العربيات من خصوصية اللغة النسائية، وما ترتبط به من عوامل جنسية طبيعية قارة وأبدية، وشروط اجتماعية وثقافية قابلة للتغيير والتبدُّل.

ولعل ما يُحرك خيوط الاهتمام بقضايا وجود كتابة نسائية، بدلا من البحث في اللغة النسائية نفسها، أن التعامل مع مصطلح «نسائي» يتم، بصفة عامة، كما تقول أحلام معمري، بحسب طروحات جاهزة ذات علاقة بواقع المرأة، ولا يتم التعامل معه كشأن «نصّي» أو «لغوي».[7] فأغلب المناقشات تتمحور حول تصنيف الأدب إلى أدب نسائي وأدب رجالي أو تقسيم الكتابة إلى كتابة نسائية وكتابة رجالية، وما يتبع النقاش الدائر من إقرار التصنيف أو رفضه. فحمدة خميس، مثلا، ترى أن الأدب النسائي مفخرة تتكامل مع الأدب السائد، وتُضيف إليه نكهة خاصة، ومن ثم، فالاعتراف به مكسب وميزة. أما خناثة بنونة في المغرب، ولطيفة القبايلي في ليبيا، وأحلام مستغانمي في الجزائر، وغادة السمان في سوريا، فتتفقن على أن الاعتراف بالتقسيم والتصنيف، معناه عزل الأدب النسائي عن الأدب الرجالي، وهو أمر غير مقبول، انطلاقا من كون الأدب إنتاجا إنسانيا بصرف النظر عن جنس منتِجِه.

إن التقابل بين إنتاج أنثوي وآخر ذكوري يظهر في تحديد مصطلح «نسائي»، ويعكس إقراره قبولا لشيء اسمه «إنتاج خاص بالمرأة والأنوثة»، في حين يُمثل رفضه «رفضا للخروج من دائرة ما هو عام وشمولي وكلي». فهل يتعارض، الأدب والكتابة والتعبير باللغة النسائية الخاصة، مع الشمولية والكونية والإنسانية؟ بعبارة أخرى، ألا تعي الكاتبات العربيات أن توظيف لغة خاصة بالمرأة مختلفة عن لغة الرجل، من حيث التصور والانشغالات وتشخيص قضايا الذات والمجتمع، أمر مشروع، بل مستحبّ ومطلوب؟

لا شك أن هناك وعيا لدى الكاتبات بخصوصية لغتهن، وأن ما يحكم الرفض والتردد، كما تقول رشيدة بنمسعود، هو الدلالات التقليدية المرتبطة بتحديد «نسائي»، تلك الدلالات المشحونة بالمفاهيم الاحتقارية، القائمة على إنكار دور المرأة كخصوصية بدعوى المساواة على حساب الحق في الاختلاف: دعوة تجد مبرراتها في العوامل الجديدة التي عرفها العالم من مثل الدفاع عن المرأة، وعن حقوقها الديمقراطية والانسانية؛ أي إن رفض التهميش يعد رفضا للهامشية والسخرية والترتيب السلّمي الدوني وللحواجز الحريمية التي وضعها الرجل في العالم العربي، وأحاط بها أدب المرأة وكتابتها، ودعّمها ورسّخها.[8]

7. انظر أحلام معمري (2011)، ص. ص. 49 – 50

8. انظر رشيدة بنمسعود في مقالتها عن الكتابة النسائية: بحثا عن إطار مفهومي، وهو (غير مرقم). ومن مظاهر السخرية من أدب المرأة التسميات التي يطلقها البعض عليه فأنيس منصور، مثلا، يسميه ب "أدب الأظافر الطويلة"، وإحسان عبد القدوس "أدب الروج والمانكير": نقلا عن معمري: المرجع السابق نفسه، ص. 47

فالكاتبات العربيات لا تعارضن وجود كتابة نسائية ذات مميزات وخصائص خاصة، لكنهن ترفضن التصنيف التقابُلي الذي يجعل الإنتاج النسائي شيئا هامشيا، في مقابل الإنتاج الذكوري المركزي، وأدبا تنتجه فئة اجتماعية ثقافية خاصة، تعاني ما تعانيه الفئات الخاصة الأخرى من ترتيب احتقاري وسُفلي، لا تحظى بما ينعم به غيرها من أهمية واهتمام وتمركز وشمولية.

في هذا الإطار، تبين رشيدة بنمسعود أن كتابة المرأة هي كتابةُ كائن مختلف، له خصوصيات جنسية مغايرة، تقترن بالجسد الأنثوي، وما يُميّزه من أدوار الدم والحيض والولادة والرضاعة، تلك الخصائص القارّة الثابتة غير القابلة للتغيير، لأنها ترتبط بالطبيعة، وتعد «قيمة أزليّة». وإذا كانت كتابة المرأة، ولغتها، وما تختاره من كلمات وصور، يُعتبر خاصا بها خصوصية الجسد، كجنسٍ مختلف عن جنس الرجل، فإن فتح الحوار بين الخصوصيات الأنثوية وبين اللغة، هو السبيل إلى التحرر والانكشاف وتغيير العلاقة مع اللغة، والانتقال من لغة محكومة بالطابو إلى لغة متحررة منه، كما هو الشأن عند الكتاب الرجال من أمثال محمد شكري.

من الممكن، إذن، تغيير البطل الأنثوي، وذلك بإلغاء الاضطهاد الاجتماعي الذي يعاني منه البطل في الرواية النسائية، ورفعه من الوضع الدوني، ونزع السلطة الذكورية عنه، ومن هيمنة الأنا، وأوجاع عدم القدرة على فعل الفعل. وهكذا، نرى أن من الكاتبات من تؤمن بإيجابية الاختلاف ومشروعيته، وتعتبر كلام المرأة (la parole) مجالا إبداعيا يمكن أن يتضمن تنوعات أسلوبية تعكس اللغة، من حيث هي عنصر مشترك. لكن، مقابل الإيمان بالاختلاف وما يحكمه من خصوصيات جنسية، فإن الوضع الكتابي واللغوي للمرأة لن يعرف التطور والتقدم، ما لم يتغير الشرط الاجتماعي الاضطهادي.[9]

2.3. الموقف من المؤنث

ذهب إبراهيم أنيس وعصام نور الدين إلى أنه من المنطقي أن يكون التذكير هو الأصل، وأن التأنيث، إذا ورد أصلا، فلا يُعتبر. وجاء عند ابن جني أن تأنيث «عاتق» من لدن البعض انحراف لغوي أو زلّة لسان أو خطأ وأن التذكير هو الأصل. وهنا يتساءل عيسى برهومة: أين المنطق في اعتبار التذكير أصل دون التأنيث، حين تتباين اللغات داخل الأسرة اللغوية الواحدة؟ كيف والقمر في العربية مذكر، وفي العبرية مؤنث، والبقر في العبرية يذكر ويؤنث، وفي العربية يذكّر، وفي السريانية يؤنث؟ كيف يكون استقرار الحال على التذكير وواقع اللغة يشهد بغير ذلك؟ أليست ألفاظ مثل الخمر والطريق والسكين، وغيرها مما يقبل التذكير والتأنيث، تؤنث في استعمال عامة الناس؟ ألا نقول: خمرة لذيذة وطريق وعرة وسكين حادة؟ ثم،

9. انظر رشيدة بنمسعود: المرجع السابق نفسه.

كيف يعتبر التأنيث مجرد انحراف أو زلة لسان أو خطأ، وقد جاء على لسان أفصح العرب؟[10] إن ما يؤنث، يقول عيسى برهومة، على مستوى واقع اللغة أكثر مما يذكّر. وإذا كان تحديد اللغويين والنحاة للتأنيث لا يتماشى مع واقع اللغة وحقيقة الكلام ووقائعه على لسان الناس في المجتمعات، فأسباب ذلك غير واضحة، ويأتي الغموض من غموض تاريخ اللغة نفسه، ومن مظاهره:

أولا، جهلُ ما طرأ على مسيرة اللغات، من حيث النشأة والتطور، إذ لم تترك الأمم أمارات كافية على لغاتها، كما أن اللغات الأولى انقرضت واندثرت رسومها؛

ثانيا، قدم فكرةِ افتقار التأنيث إلى علامة تدل عليه، فمنذ الزمن الغابر، اعتُبرت اللاحقة سمة «الضعف» و«الأقل قيمة» و«الأدنى»، ولذلك ارتبطت بمعاني كالتصغير والتحقير. ولقد أشار يسبرسن Jesperson إلى اعتماد اللغات القديمة للاحقتين هما: «à»و «i» الدالتين على «الصِّغر» و«الضآلة» و«النقصان» في تحديد التأنيث؛

ثالثا، قياس التذكير والتأنيث على قصة الخلق الأولى، وهي خلق آدم، أولا، ثم اشتقاق حواء من ضلعه، بعد ذلك. ولذلك، كان الذكر هو الأصل وهو الأول، وكانت الأنثى هي الفرع، وهي الثانية. وكما كان الذكر والأنثى في قصة الخلق كانا في اللغة، إذ عُدّ المذكر عمدة الكلام والأصل الذي لا يفتقر إلى علامة، والأنثى فرع يحتاج للعلامة، يقول المبرد: «فليس للتذكير علامة لأنه الأصل، وهو الأوّل، وإنما ألحقوا للمؤنث علامة في الأغلب؛ لأنه فرع التذكير».[11]

وكيفما كانت الأسباب وراء التصور غير الواقعي وغير المنطقي لظاهرة التأنيث، فإن النحو العربي يظل، منذ كان إلى الآن، يتضمن تخصيصا للتأنيث غير متلائم مع واقع اللغة. ففي هذا النحو، تتقابل خصائص المذكر والمؤنث، حيث يظهر:

أولا، أن المذكر مصنّف في خانة الأصل والاسم وعدم الافتقار إلى العلامة، وأنه يشمل حتى الأفعال. أما المؤنث، ففرع يفتقر إلى العلامة التي أكثر ما تكون في الصفات، وهو مؤنث بالخروج من التذكير؛ أي بالاختصاص وأخذ العلامة، ودخولها عليه، بل إن للعلامة وظيفة أخرى تتمثل في تمييز الذات، إن كانت أنثى، عن الحيوان.

10. انظر ص. ص. 63 – 64 فيما نورده، بتصرّف، عن عيسى برهومة (2002): مرجع سابق.

11. نقلا عن عيسى برهومة: انظر ص. ص. 46 – 47 و64 و94 – 95: المرجع السابق نفسه.

ثانيا، المذكر يرتبط بالفاعلية، بينما يرتبط المؤنث بالمفعولية، كما أن المذكر يُقرن بالاسمية وعدم التبعية، في حين يُعد المؤنث وصفا تابعا.

وفيما يلي نتابع الخصائص المذكورة من خلال أقوال بعض النحاة، وذلك على مستويات ثلاثة: مستوى جعل المذكر أصلا، والمؤنث فرعا، ومستوى ربط المذكر بالفاعلية والمؤنث بالمفعولية، ومستوى ربط المذكر بالاسمية والمؤنث بالوصفية.

1.2.3. المذكر أصل والمؤنث فرع

يقول ابن عقيل: «أصل الاسم أن يكون مذكرا، والتأنيث فرع عن التذكير، ولكون التذكير هو الأصل استغنى الاسم المذكر عن علامة تدل على التذكير، ولكون التأنيث فرع عن التذكير افتقر إلى علامة تدل عليه، وهي التاء...». ويضيف، قائلا، عن هذه التاء: «إنما زيدت في الأسماء ليتميّز المذكر عن المؤنث، وأكثر ما يكون ذلك في الصفات كقائم وقائمة، وقاعد وقاعدة»[12]. ويقول سيبويه: «الأشياء كلها أصلها التذكير ثم تختص بعد» و: «الشيء يختص بالتأنيث فيخرج من التذكير». وقال الزجاجي: «أصل الأسماء التذكير والتأنيث داخل عليها» وفيما يخص تمييز العلامة للمؤنث عن الحيوان، يقول المبرّد: «كل ما لا يعرف أمذكر هو أم مؤنث، فحقّه أن يكون مذكرا؛ لأن التأنيث لغير الحيوانات، إنما هو تأنيث بعلامة». وفي تجاوز المذكر الأسماء إلى الأفعال، يقول الزجاجي: «فأمّا الأفعال فمذكرة كلها، وإنّما تلحقها علامة التأنيث دلالة على تأنيث الفاعل».[13]

يتبين من هذه النصوص، أن المذكر أصل واسم، لا يفتقر إلى العلامة، والمؤنث فرع، يتفرع عن المذكر، ويحتاج إلى تاء التأنيث علامةً، وهو حين يحمل العلامة، لا يكون اسما، بل صفة؛ أي يفقد الاسمية التي تعود للذكر وترتبط به على الأصل. فالمؤنث مؤنث بقرائن، إذن، وبالاختصاص، كذلك، وبالخروج من التذكير، وبأخذ العلامة، ودخولها عليه، كما نلاحظ، وذلك بعكس المذكر، الذي يعتبر التذكير فيه أصل، حيث لا يحتاج، لا إلى الاختصاص، ولا إلى الخروج من شيء، ولا إلى دخول شيء عليه؛ بل إن الأصل في كل شيء مذكر، لذلك، فالإنسان الرجل، لا يفتقر إلى علامة تميزه عن الحيوان، بعكس المرأة، فالمؤنث، لو كان، أصلا، لما افتقر إلى علامة. ولقد تعدى التذكير، بأصالته، الأسماء إلى الأفعال، إذ إن الفعل مذكر كله، وتاء التأنيث، إذا لحقته، فلأن فاعله قد يكون مؤنثا. بعبارة أخرى، الفعل لا يؤنث أبدا، ولما تلحقه

12. انظر ص 429، ج 2، **شرح الألفية لابن عقيل**، ص. 430

13. نقلا عن عيسى برهومة (2002) ص. 93، المرجع السابق نفسه.

علامة التأنيث، فذلك لأن فاعله مؤنث، فدخل، مثلا، وقام وجاء، وخرج، مذكرة، أما دخلت وقامت وجاءت وخرجت، فالمؤنث فيها فاعل، والفعل يبقى مذكرا على الرغم من أن التي فعلته أنثى!

2.2.3. المذكر فاعل والأنثى مفعولة

وفي قضية فاعلية المذكر ومفعولية المؤنث، يقول ابن عقيل: «إذا كان فَعول بمعنى مفعول فقد تلحقه التاء في التأنيث، نحو «ركوبة» - بمعنى مركوبة». أما الصفات التي لا تلحقها هذه التاء، فهي، يقول: «ما كان على فعول وكان بمعنى فاعل» وذلك نحو «شكور» و«صبور» بمعنى شاكر وصابر؛ فيقال للمذكر والمؤنث «صبور» و«شكور» بلا تاء، نحو «هذا رجل شكور، وامرأة صبور» وإذا جاءت الصيغة بمعنى فاعل، فآنذاك تسمح القاعدة بأن تلحقها تاء التأنيث، ففعيل، عند ابن عقيل، «إما أن تكون بمعنى فاعل، أو بمعنى مفعول؛ فإن كان بمعنى فاعل لحقته التاء في التأنيث، نحو: رجل كريم، وامرأة كريمة»[14].

فابن عقيل يربط الذكر بخاصية الفاعلية والأنثى بالمفعولية؛ أي إن الذي يفعل ولا يُفعل به مذكر في اللغة، بينما الذات التي لا تفعل، ويُفعل بها، فتعد أنثى ! فامرأة صبور وشكور، مثلا، يعود فيها الصبر والشكر على المرأة، لأنها هي من تتصف بالصبر والشكر، ومع ذلك، فإن القاعدة تجعل المرأة هنا بمثابة المذكر، وتبرر ذلك بكون الفاعلية خاصية مذكرة، لا يمكن إسنادها للمرأة ! وبهذا نلمس عدم تطابق وصف اللغة مع الواقع بقدر ما يتأكد التطابق مع القاعدة المصوغة وفق معايير الأصل والفرع، وأصالة الاسم وفرعية الصفة، وفاعلية الصفة المسندة إلى المذكر، في مقابل مفعوليتها إذا اتصف بها المؤنث.

لقد صنع النحاة ضوابطا لغوية صوّرت المذكر أصلا موغلا في الاسمية والفعلية والفاعلية، والمؤنث فرعا ضاربا في الافتقار إلى الوصفية والفعلية، ومرتبطا بالمفعولية؛ فكل صفة تكون بمعنى الفاعلية، فهي ذات فاعلة، تفعل الفعل وتقوم به، وتنجزه وتحققه وتمارسه كنشاط وإجراء، وهي، بالضرورة، مذكرا. أما كل صفة ترد بدلالة المفعولية، فهي كائن مفعول به، يُفعل به الفعل، ولا يفعل، هو، الفعل، وإذا شاءت اللغة أن تولّده بمعنى فاعل، كما في صيغة فعيل، فيما ذكر ابن عقيل، فحينها، فقط، تسمح القاعدة بأن تلحق به تاء التأنيث !

14. انظر ص. 431 من **شرح الألفية لابن عقيل**: المرجع السابق نفسه.

3.2.3. المذكر غير تابع والمؤنث تابع

يتعمق مبدأ التفريق بين المذكر والمؤنث، باعتبار خصائص الاسمية والوصفية، وارتباط ظاهرة الاسم بالمذكر، والصفة بالمؤنث، من خلال ما طوره ابن عقيل حول قواعد التبعية، يقول: إن فعيل كقتيل، «إما أن يستعمل استعمال الأسماء أو لا؛ فإن استعمل استعمال الأسماء - أي لم يتبع موصوفه - لحقته التاء، نحو «هذه ذبيحة، ونطيحة، وأكيلة»؛ أي مذبوحة ومنطوحة ومأكولة السبع» ويضيف: «وإن لم يستعمل استعمال الأسماء - أي بأن يتبع موصوفه - حذفت منه التاء غالبا، نحو «مررت بامرأة جريح، وبعين كحيل»؛ أي: مجروحة ومكحولة»[15]

الملاحظ من النص أن ابن عقيل يميِّز في الصفات بين ما يُستعمل استعمال الأسماء وما لا يستعمل استعمال الأسماء، ويُبين أن الاستعمال الاسمي يسمح للصفة أن تتبع الاسم، وأن تأخذ تاء التأنيث، بفضل هذه التبعية، كون الاسم مذكر في الأصل. أما إذا استُعملت استعمالا غير اسمي، فلا يُسمح لها أن تتبع الاسم، بل تتبع الموصوف، ولا تأخذ في هذه الحالة تاء التأنيث؛ فتوظيف الصفة كاسم يجعلها مُتمكنة وقادرة على التميّز بعلامة التأنيث، في حين، إذا لم تُستعمل كاسم، بل كصفة، فذلك يعني أنها غير مُتمكّنة ولا قادرة على التميّز بعلامة؛ أي إنه في وضع الاسمية، تكون التبعية للاسم مشروعة، بينما في حالة التأنيث، المُتمثلة في الوصفية، تُمنع التبعية للاسم، وتتم بحسب الموصوف. لذلك، فإن الجمل التي يُدرج ابن عقيل، وهي «مذبوحة السبع ومنطوحته ومأكولته»، تعتبر متمكنة في الاسمية، غير تابعة. أما جمل من قبيل: «امرأة جريح وعين كحيل»، فتتضمن موصوفا وصفةً، وعلى الرغم من أن الصفة، هنا، تتعلق بوصف ذات امرأة، فهي تتبع الموصوف، ولا تأخذ علامة التأنيث، وذلك لأنها ليست اسما. فالمؤنث، حين يتبع موصوفه، يُخرّج على أنه صفة لا ترقى إلى مرتبة الاسم، وتاء التأنيث في الصفة لا قيمة لها، لأن الاسمية الذكرية هي المبدأ المُحدّد لامتياز عدم التبعية ! ثم إن غياب تاء التأنيث من الصفة لا يعد كافيا لإعفاء هذه الصفة من التبعية للموصوف الذي لم يُستعمل استعمال الاسم؛ أي استعمال الأصل المذكر ذي الأولوية في قرار وجود التبعية أو عدم وجودها !

فتاء التأنيث، تزاد، كما يقول ابن عقيل في الأسماء التي ليست بصفات «كرجل ورجلة، وإنسان وإنسانة، وامرئ وامرأة». أما زيادتها لأجل التمييز بين المذكر والمؤنث في فعول، بمعنى فاعل، «كشكور»، فشاذ لا يُقاس عليه، ومنه: «عدو وعدوة، وميقان وميقانة، ومسكين ومسكينة». ويعتبر ما حذفت منه التاء، وهو على وزن فعيلة كـ «كريمة، «ومعناه كريم، أي فاعل، قليل، ومن أمثلته قوله تعالى: (يحيي العظام وهي

15. انظر ص. 432 من **شرح الألفية لابن عقيل**: المرجع السابق نفسه.

رميم) و(إن رحمة الله قريب من المحسنين). ومثل ذلك «خصلة ذميمة وفعلة حميدة»، أي محمودة، حيث التاء لحقت الصفة (من قبيل جريح)، على الرغم من أنها لا تستعمل استعمال الأسماء»[16].

وهكذا يتوضح موقف النحاة من التأنيث، ومن كونه لا يطابق واقع اللغة. ومن ذلك أن «رجلة» لو كانت قليلة، فعلا، لما تضمنتها العربية المغربية، إلى الآن، في الجمع المستعمل في كلمة: «رجّاله»، كما أن إنسانة تشيع اليوم في الفصحى وفي العامية معا، وامرأة، هي المستعملة في المستويين اللغويين: الفصيح واللهجي الدارج، ولـ «امرئ» معنى عام، إذ ينطبق على الشخص رجلا كان أو امرأة، وتناوب الألفاظ المؤنثة: «مسكينة وميقانة وعدوة» الألفاظ المذكرة: «مسكين وميقان وعدو»، ويمكن أن نقيس على «كريمة» «رميمة وذميمة وحميدة» لأنها كثيرة شائعة. وإذا جاز أن «جريحة» لا تُقال في «مجروحة»، فإن «جارحة»، بمعنى اسم الفاعل المقترن بالزمن الحاضر ممكنة، إذ نقول: «هند جارحة عمر اليوم»، كما نقول: «هند قادمة اليوم».

3.3. موقف الباحثين من لغة المرأة

1.3.3. منع اللغة عن المرأة

يعد المنع سببا من أسباب عدم تقدم لغة المرأة وتطورها، إذ إن الرجل، على مدى التاريخ، اعتبر اللغة حقه الطبيعي الذي لا ينبغي للمرأة مشاركته في التمتع به وبصناعته وإنتاجه وممارسة نشاطِ بنائه وتطويره بقصد التطور به، ومن خلاله. ومن متجليات منعِ الرجل اللغة عن المرأةِ، الشواهد التاريخية. ومنها ما جاء على لسان الجاحظ وخير الدين بن نعمان بن أبي الثناء. يقول الجاحظ: «إن الكتابة للرجل وهي شرف وحق، والمكاتبة للمرأة وهي خطر، لأنها وسيلة جنسية تفتح علاقات العشق والرّفث»؛ ويقول بن أبي الثناء: «وأما الكتابة، فأول ما تقدر المرأة على تأليف الكلام بها، فإنه يكون رسالة إلى زيد ورقعة إلى عمر، وبيتا من الشعر إلى عزب وشيئا آخر إلى رجل آخر، فمثل النساء والكتابة، كمثل شرّير سفيه، أو سكّير تعطيه زجاجة خمر، فاللبيب من الرجال من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمى، فهو أصلح لهنّ وأنفع»[17].

فبالنسبة إلى الجاحظ، تعد الكتابة، إذا كانت للرجل شرفا، بينما تعتبر، المكاتبة للمرأة، خطرا. ومعلوم أن المقصود بالمكاتبة المراسلة، بما هي نشاط عادي يمارسه الناس قصد تبادل الأخبار والتواصل. ومع ذلك، أي مع طبيعة فعل التراسل والتكاتب، المعتاد الطبيعي، فقد منعه الجاحظ عن المرأة وصنّفه في منطقة

16. انظر ص. ص. 430 – 432 من المرجع السابق نفسه.

17. انظر قول الجاحظ وبن أبي الثناء ضمن ص. 112 من محمد عبد الله الغذامي (2006).

الخطر، واعتبره وسيلة جنسية، يكون هدف المرأة منها الدخول في علاقات العشق والرفث. ويزداد انعدام الموضوعية والمنطق في تحديد الهدف من المكاتبة النسائية حين نعلم أن معنى الرفث في المعجم كالتالي: كلمة جامعة لما يريد الرجل من المرأة في سبيل الاستمتاع بها من غير كناية. وفي التنزيل العزيز: (أُحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكمْ)؛[18] أي إن الرفث معناه ما يطلب الرجل من المرأة بدون تسمية بغرض الاستمتاع، وهو أمر، على الرجل تأجيله وقت الصيام؛ فالتحديد المعجمي يُسند الرفث إلى الرجل، ويربطه بسلوكه ونواياه ومراميه من العلاقة مع المرأة، إلا أن الجاحظ في النص ينسبه إلى المرأة المكاتبة المتواصلة بالرسائل. وكذلك، يمنع ابن أبي الثناء اللغة عن المرأة، ويذهب مذهب الجاحظ، حين يعتبر امتلاك المرأة للكتابة امتلاكا للمكاتبة وتواصلا مع الرافثين من الرجال. فعنده لا تعد الكتب والكتابة في يد المرأة لغة تعبير أو إفصاح أو تواصل أو إبداع أو صناعة أو إنجاز، بل هي سيف في يد شرير سفيه وزجاجة خمر في يد سكير، وهو ما يعني أن اللغة تحول المرأة إلى شريرة وسفيهة وقاتلة وسكيرة، تجعل الأصح والأصلح منع الزوجات منها، وتركهن يغرقن في الجهل والعمى، ومن لم يمنع زوجته من الكتابة واللغة، يعد غير عاقل وغير لبيب، ومُعرّض لخطر السّفَه والشر والقتل. ويؤكد ابن أبي الثناء وصية ترك النساء جاهلات عميات بمنع القراءة والكتابة عنهن، بصفتهما ضررا لهن، ويأتي الضرر، عنده، من كونهن مجبولات على الغدر: يقول: «أما تعليم النساء القراءة والكتابة، فأعوذ بالله، إذ لا أرى شيئا أضر منه بهن، فإنهن لما كن مجبولات على الغدر كان حصولهن على هذه الملكة هي من أعظم وسائل الشر والفساد».[19]

2.3.3. الاستخفاف بلغة المرأة

الاستخفاف، كذلك يعتبر من أسباب الوضع غير المُتقدم الذي ما زالت تعاني منه لغة المرأة العربية. والمقصود به اعتبار لغة المرأة، سواء أكانت كلاما أو كتابة أو شعرا أو تعبيرا ثقافيا، تطفلا ومحاولة سافرة لمنافسة الرجل في لغته، والتمكن مما تمكن منه من قدرة على القول والخطاب والإبانة والإفصاح. لقد وصف الرجال كتابة المرأة بالدلع، كما جاء على لسان مي زيادة في المؤلفات الكاملة[20]. ومنذ القديم ترسخ مقياس لجمال المرأة يتحدد بالصمت وقلة الكلام، فالمرأة الجميلة لا تتكلم، وإذا تكلمت تستعمل الألغاز[21].

18. انظر المعجم الوسيط (1985).

19. انظر الإصابة في منع النساء من الكتابة ضمن محمد عبد الله الغذامي ص. 111 من المرجع السابق نفسه. وفي سياق منع النساء من التعلم تذكر باسمة الكيّال (1981)، ص. ص. 117 – 218، أن الأسر المغربية ظلت توجه الانتقادات إلى "باحثة الحاضرة" مليكة العاصمي التي كانت تدافع عن تعليم الفتاة المغربية. وبهدف مواجهة إصرار الأسر، جمع الملك محمد الخامس أعيان المملكة سنة 1943، وكاشفهم بضرورة تعميم تعليم المغربيات، ومن طرائف ما يُذكر هنا تقول إن أحد الشيوخ المحافظين، سأل الملك: "أفهى وتسقيها سمّا؟" فأجابه الملك: "إن الفتاة ليست أفعى. وهبها كذلك، فإن العلم ما كان ولن يكون سمّا، وإنما هو ترياق".

20. انظر ص. ص. 141 – 142 من محمد عبد الله الغذامي: المرجع السابق نفسه.

21. انظر ص. 164 من محمد عبد الله الغذامي (1998).

وفي سياق الاستخفاف بلغة المرأة، بين الدارسون أن عدد شاعرات الجاهلية بلغ 504، لكن لم يُسمع منهن إلا للقلة القليلة، كالخنساء وسكينة بنت الحسين ورابعة العدوية. وقديما قال بشار بن برد: ما من شعر تقوله امرأة إلا بان فيه الضعف، ولما اعترضه أحد جلسائه بقوله: «والخنساء؟» قال: «تلك كان لها أربع خصي».[22] فبشار بن برد وصف شعر المرأة بالضعف على الإطلاق، وحين وجد أمامه من يستثني الخنساء، صنفها، ساخرا، ضمن جنس الرجال، وأي رجال؟ المالكون لأربع خصي؛ أي من يفوق الجنس الرجالي العادي بامتلاكه لأكثر من خصيتين. وقال الفرزدق في المرأة التي تقول الشعر: «إذا صاحت الدجاجة صياح الديك، فلتذبح» ومعنى ذلك أنه، بالاستهزاء والحط من قدرة المرأة على قول الشعر، وازى بينها وبين الدجاجة. وإذا كانت الدجاجة تُذبح، فعلا، فالذبح المجازي، هنا، يُحيل على منتهى الاستخفاف، وعلى أقصى ما يمكن من الإهانة والإبعاد والنفي والإلغاء والضغط الاجتماعي والنفسي. والهدف، طبعا، كما يقول محمد عبد الله الغذامي، منع المرأة من دخول إمبراطورية الرجل حتى لا تنافسه فيما امتلكه واحتكره لنفسه من ثروة لغوية وقدرة على القول والكتابة والكلام والإبداع.

ومن مظاهر الاستخفاف، في العصر الحديث بقدرة المرأة على إنتاج اللغة، اتهام الكاتبات بوجود من يكتب لهن؛ أي إن هناك رجلا يكتب لمن تكتب من النساء، وهذا الرجل قد يكون أخاها أو أباها أو زوجها أو شخصا يقربها. ومن الأمثلة الشاهدة، فعليا على ذلك، ما أورده الغذامي من كون وردة اليازجي اتُّهمت بأن أباها وأخاها كانا يكتبان لها الشعر. كما يعد موقف العقاد من صالون (مي) الأدبي، بصفة خاصة، ومن الكتابة النسائية، عموما، دليل آخر على الاستخفاف بلغة المرأة وعدِّها شيئا لا يستحق النظر، ولا القراءة ولا النقد ولا الاعتبار الأدبي ولا الثقافي. فهذا الصالون بالنسبة إلى العقاد، كان مجرد غرفة استقبال، وكل ما تنتجه المرأة من نصوص داخله، يتسم بما يتسم به هذا الصالون من أناقة وترتيب وتنسيق وبراعة؛ أي إن لغة الأندية مثل الأندية، ولغة الصالونات كالصالونات، هي لغة الجنس الجميل في المكان الجميل، كذلك، إنها ليست لغة العقل، بل لغة البيت التي لا يمكن أن تخضع للنقد الأمين، ولغة المحاباة والظُّرف، ولغة الدمى الثقافية والحريم الثقافي: اللغة التي لا يمكن للرجل، بصفته سيد اللغة ومالكها والمهيمن عليها والمتمكن منها، أن يُخضعها للدرس الجاد والنقد الجدّي، وذلك، في رأيه، لأنها لا ترقى إلى مرتبة لغة الأدب الحقيقي ولغة الكتابة الحقيقية.[23]

22. انظر ص. 90 من عيسى برهومي: المرجع السابق نفسه.

23. انظر هذه المضامين، بتصرف، ضمن محمد عبد الله الغذامي (2006)، ص. 141 – 150

3.3.3. اللغة بالنسبة إلى المرأة قلق وعذاب

القلق والعذاب نتيجة من نتائج منع المرأة من اللغة والاستخفاف بها وبلغتها واعتبارها أقل من أن ترقى لأن تكون كلغة الرجل. وبعد أن كانت المرأة، كما يبيّن محمد عبد الله الغذامي، تمارس لغة الحكي صارت تمتهن لغة التأليف والكتابة، فما هو مضمون كل لغة؟[24]

تعتبر لغة الحكي النسائية؛ أي لغة ألف ليلة وليلة، لغة الماضي والظلام، من جهة، ولغة الأمان والاستقرار والاختباء من أخطار الخارج ومخاطر النور والنهار، لأن المرأة تكتفي بها، ومن خلالها، بالحكي اللغوي الشفوي بقصد إمتاع الرجل وتطريبه. أما لغة الكتابة، فهي لغة القلم والورق والتأليف والنشر والخروج إلى العلن والانكشاف على الرجل ومحاورته والتكلُّم معه وإحداث علاقات معه. ولما كانت لغة الكتابة لغة من ملك الرجل، لأنه مارسها طويلا وخَبَرَها وخبر سمومها وطوّعها وتمكن منها، فإنها، بالنسبة إلى المرأة، خطر كبير، لأن النساء جديدات العهد بأمور الكتابة واللغة، فهي لم تخبرها خبرته ولم تألف ممارسة سمومها، ولا تعاملت مع هذه السموم، ولا مع ما تتطلب من حنكة وتجربة وتأقلم.

ويعد الفرق بين لغة الحكي ولغة الكتابة هو ما جعل اللغة النسائية، أو دخول المرأة إلى عالم اللغة، يقترن بالقلق والألم والبؤس والاكتئاب والحيرة والتردد والشعور بالعزلة والوحدة والاحساس بالمرض الجسدي والنفسي، وغير ذلك من مضاعفات ونتائج الدخول في عالم ليس بالعالم الخاص، وممارسة عمل ليس بالعمل الخاص كذلك. إن عالم اللغة عالم الرجل على الأصل، ومهنة اللغة وصناعتها وإنتاجها وصوغها شيء خاص بالرجل ومرتبط به. أما المرأة، فدخيلة عليه، أجنبية عنه وغريبة.

ويمثل الانتقال من لغة الحكي الآمنة إلى لغة الكتابة المحفوفة بالمخاطر جيل الرائدات، الذي ظهر مع مطلع القرن العشرين و/ أو الألفية الثانية. وتعد مي زيادة (ماري إلياس زيادة: 1941-1986) رمزا لهذا الجيل النسوي. ومن أقوالها في سياق دفع ثمن الخروج من لغة الحكي إلى لغة الكتابة: «وليس من الممكن أن نخرج من الظلام الحالك إلى النهار الساطع دون أن تبهرنا الأنوار فتتضعضع البصائر، ولا نعود نرى الأشياء في مكانها كما هي»[25]. فالظلام الحالك هو عدم الكتابة وعدم ممارسة اللغة، والنهار الساطع هو الكتابة وهو اللغة، والانبهار والتضعضع الذي تعاني منه الأبصار، من جراء الأنوار، هو الأخطار، والثمن المدفوع لمكسب الكتابة واللغة ولميزة ممارسة القلم واستعماله والتعبير، كما يعبر الرجل، والتكلم كما يتكلم. أما عدم رؤية الأشياء كما كانت في مكانها، فيأتي نتيجة تغير الرؤى والتصورات والمواقف والاعتقادات؛

24. نستفيد في تطوير هذه المضامين من محمد عبد الله الغذامي (2006)، ص. 127 – 141

25. ضمن المرجع السابق نفسه: ص. 132

أي إن الأشياء، ضمن رؤية لا تتوسل الكتابة واللغة، ليست هي نفسها في إطار توسل الكتابة واللغة، لأن اللغة تريك ما لا تراه بدون لغة، وبعد أن يكون الشيء شيئا معينا يصير باللغة شيئا آخر مختلفا.

يقول محمد عبد الله الغذامي إن التفاعل الثقافي والنفساني، يتجلى عند المرأة الكاتبة أكثر من الرجل الكاتب. والدليل على ذلك، أن القلق منتشر بين النساء المثقفات عنه بين النساء غير المثقفات، وذلك، لأن المرأة المثقفة أكثر وعيا بوجودها عن غير المثقفة. فمي زيادة، يقول، دفعت حياتها وعقلها ثمن الدخول في اللغة، وثمن محاولة التكلّم بلغة لم تكن لها، فقد انتهت في مستشفى للأمراض النفسية. وكذلك، عانى باقي الرائدات من جيل (مي) كباحثة البادية (ملك حنفي ناصف: 1965-1986)، التي انتهت، هي الأخرى، مضطربة الأعصاب. تقول (مي): «إن تاريخ المرأة استشهاد طويل»، وتقول في موضع آخر: «كنت كئيبة. كنت أكتئب لغير سبب»، وفي موضع ثالث: «قرب منعطف السبيل عندما تمثلت انقضاء الماضي، وجمود الحاضر، واستحالة السير إلى الأمام، لم يبق لي سوى اختيار إحدى الميتتين: ميتة طويلة مفعمة بحشرجة القنوط، وميتة الانتحار السريعة المُنقذة". وتقول أيضا: "إنّي اتعذب اشد العذاب، إني لم أتألم أبدا في حياتي كما أتألم اليوم ولم أقرأ في كتاب من الكتب أن من طاقة بشر أن يتحمل ما أتحمل. إن هناك أمرا يمزّق أحشائي ويميتني في كل يوم، بل في كل دقيقة. لقد تراكمت عليّ المصائب في السنوات الأخيرة، وانقضّت علي وحدتي الرهيبة التي هي معنوية أكثر منها جسدية، فجعلتني أتساءل كيف يمكن لعقلي أن يقاوم عذابا كهذا". ومما قالته باحثة البادية، في الاتجاه نفسه، مخاطبة (مي): "آلامي أيتها السيدة شديدة، ولكني أنقلها بتؤدة كأنني أجر أحمال الحديد" وتتابع: "إن قلبي يتصدع من أحوال هذا المجتمع الفاسد". ومما جاء على لسان عائشة التيمورية من شعر:[26]

إني ألفت الحزن حتى إنّني لو غاب عنّي ساءني التأخير

فالمرأة التي تمارس اللغة تعاني، كما يظهر من شهاداتها، هي نفسها. فبالنسبة (لمي) تاريخ المرأة كلّه استشهاد طويل واكتئاب، لا تُعرف أسبابه، وماضٍ انقضى وحاضرٍ جامد وسيرٍ مستحيلٍ إلى الأمام وتفكيرٍ في الموت المُفعم بحشرجة القنوط أو موت انتحاري مُنقذٍ سريعٍ. إنه ألم وعذاب لا يُحتمل وتمزُّق وموت بطيء ومصائب متراكمة ووحدة معنوية "مُنقضّةٌ" وعقل يقاوم ما لا يقاوم من الآلام والعذاب والقلق. وتشبّه باحثة البادية آلامها بأحمال الحديد، وتشتكي من فساد المجتمع، وآثاره في "تصدُّع قلبها". أما عائشة التيمورية، فقد ألفت الحزن إلى حدّ أنها صارت لا تتحمل تأخّره، بل يسوؤها غيابه.

26. ضمن المرجع السابق نفسه، ص. 139 – 141

والمرأة، إذا كانت تصف باللغة وتعبّر وتكتب وتتكلم، عما تعانيه من ألم وضيق وشدّة واضطراب ووحدة، فلأن اللغة نفسها مصدر قلق وعذاب؛ أي، إن اللغة شيء غير عادي، وهو لا يضعها أمام خيارين، فإما أن تكون قد امتلكتها، مثل الرجل، الذي تمكن منها منذ الزمن الغابر، حيث أصبح سيدها العارف بأمورها وبتفاصيلها، وإما أن تحاول امتلاكها، فتضطر إلى دفع الثمن من الصحة النفسية والعصبية والعاطفية. وهكذا، وفي محاولة الحصول على اللغة، تجد المرأة نفسها ضمن دوامة من القلق والألم والإحساس بالوحدة والعزلة والضيق. كذلك، وجدت جيل الرائدات في مطلع القرن العشرين أنفسهن، إذ واجهن اليأس والمرض والضياع، فجاءت لغتهن، مثلهن، تمثل لسان معذّبات وقانطات ويائسات ومريضات، تعانين من المرض وتشتكين من الماضي والحاضر والمستقبل، وتفضّلن الموت والانتحار على العيش والحياة.

4.3.3. ذكورية اللغة المؤنثة: مهرب ومخرج

عادة ما يترتب عن القلق والاضطراب نتائج عكسية لما يريده المرء ويطمح إليه. وفي هذا السياق، تجيء لغة المرأة ذكورية غير أنثوية؛ أي لغة تعكس فكر الرجل وتصرفاته وهمومه، على الرغم من أنها صادرة عن الأنثى. فإذا كان المفروض أن ترد لغة الأنثى مؤنثة لأن صاحبتها امرأة، فإنها تجيء مذكرة، على غير الأصل والطبيعة.

ويعود السبب وراء مجيء لغة المرأة في صيغة لغة المذكر وأشكالها ومظاهرها وطموحاتها وأهدافها، الانضواء القسري داخل السياق الذكوري؛ أي إن المرأة تخضع لعامل ضغط قاهر، يحول دون استقلالها وتحررها من لغة الذكر، فهي، حين تدخل عالم اللغة، وتعبّر باللغة، وتكتب وتؤلف وتنشر وتروي، تجد نفسها سجينة لغة الذكر: اللغة التي تذكّرت وعُجِنت ونمت وتطورت بالنفَس الذكوري الضارب في أعماق التاريخ اللغوي، والمُنغرس في التربة الثقافية، الراسخة رسوخ هذا التاريخ وهذه التربة. إن الذات المؤنثة، يقول الغذامي: «لم تبلغ لحظة الاستقلال الحقيقي والوعي الحقيقي بذاتها وبأنوثتها في مواجهة ذكورية اللغة وذكورية المكان [يقصد عالم اللغة]. ولأن الذات خاضعة لشرطها الحضاري النفسي (...) هو ذاك السياق الذكوري الذي تنطفي أمامه الأنوثة والذات المؤنثة»[27].

ومن مظاهر الانضواء القسري للذكورة والخضوع للهيمنة الذكورية استعمال بعض الكاتبات للضمير اللغوي المذكر، وإن كنّ يقصدن الإحالة على المؤنث. فمي زيادة، حين كتبت عن الأديبة الفرنسية مدام سفنيه في: الصحائف، قالت: «قالوا إن مدام سفنيه مخبر بارع يلتقط الأخبار من جميع الدوائر ويُدونها بأمانة مع جمال في الأسلوب وأناقة في الألفاظ، ليبعث بحوادث المدينة إلى أصدقائه الريفيين. وكل ذلك صحيح،

27. ص. ص. 151 – 153: المرجع السابق نفسه.

غير أني أرى قلب مدام سفنيه منهل تفوقها. الكاتب الأول هو الكاتب المحب، والكاتب المُخبر يأتي بعده؛ الكاتب الأول هو الذي يكتب مدفوعا بعواطفه ليعبر عن عالم وجدٍ وحنين، ولأن نفسه تلتهب شوقا»[28]. فعلى الرغم من أن الحديث هو عن امرأة، كما نلاحظ، فالإحالة في النص على المذكر، إذ تستعمل الكاتبة، مثلا، مخبر، كاتب، محب، بارع، مدفوع بعواطفه، نفسه تلتهب شوقا، يدوّن، يبعث، يكتب، يلتقط، يعبر، إلخ). وسبب الإحالة على المذكر، مع أن المُحال عليه امرأة، هو الخضوع القسري لعالم لغوي ذكوري: ذكّره الزمن والأيام والتاريخ وصار هو النموذج والمثال، وهو الصورة المُتبعة التي لا تقدر المرأة على التحرر منها. ولعل القسرية تتقوّى بكون المرأة حديثة العهد باللغة، فهي عنصر طارئ عليها، لم تكن فيها، كما كان الرجل، وهي الآن، أثناء محاولة استخدام اللغة، تحيل على نفسها بالمذكر، عسى أن يرضى بها هذا المذكر ويعترف، وعسى أن يسمح لها بالدخول إلى مملكته وإمبراطوريته.

ومن المظاهر الأخرى المؤكدة لتذكير المرأةَ لغتَها، مع أنها كائن مؤنث، يُفترض أن تكون لغته مؤنثة، بطلة غادة السمّان في روايتها «عيناك قدري»، حيث يستدل محمد عبد الله الغذامي على تبني الكاتبة للغة الرجل المذكر، وللصور والسلوك والأفعال والمعتقدات المذكّرة. ويبين كيف تختبئ وراء النص الروائي فكرة «قتل الأنوثة» و«التعالي على النسوية». وهكذا يصير كل ما هو مذكر جميل، وكل ما هو مؤنث بشع: العمل وعدم الزواج وعدم الولادة وعدم القيام بأشغال البيت والحزم والصرامة، مثلا، هي أمور جميلة، لأنها تتصل بالرجل، وتُمثل المذكر، وتُصوره، أما الحمل والرضاعة والولادة والحيض وتربية الأطفال، وغير ذلك، فتعد بشعة، لأنها مؤنثة ترتبط بالأنثى وبوظائفها البيولوجية ومهامها الاجتماعية والنفسية. ففي «داخل لغة غادة السمّان [يقول محمد عبد الله الغذامي] يتصادم الرحم الحسي مع الرحم المجازي، فذلك الرحم الذي ينتفخ وينزف هو ما يُشوه ويعيق، بينما هناك رحم آخر يلد ويعطي دون أن ينتفخ أو ينزف، وهو رحم اللغة التي لا تشيخ مهما طال عمرها ولا تترهل مهما اكتنزت ولا تفقد رشاقتها وجمالها وخفة حركتها مهما استخدمت»[29]. في هذا السياق المتبني للذكورة لغةً جاءت لغة غادة السمّان ذكورية، ترفض اللغة الأنثوية، وما ذلك إلا لأنها تتصور لغة الذكر لغةً قوية معطاءةً ولّادة: ذلك العطاء وتلك الولادة اللذان لا يتعارضان مع الخفة والرشاقة والشباب، بخلاف لغة الأنوثة، التي لا تكون إلا إذا اقترنت بالثقل والتثاقل والانتفاخ والنزف والترهل والتشيّخ. وفي هذا الإطار العام لتذكير المرأة للغة هي، أصلا، مؤنثة، يتساءل محمد عبد الله الغذامي: كيف تكون المرأة ضد لغتها؟ ويجيب عن السؤال بمقاربة السلطة الصفرية (sum power game)[30]. وفحوى هذه اللعبة أن النساء في العالم كله، ممّن وصلن عالم الكتابة والقلم واللغة، يُمثلن

28. ضمن المرجع السابق نفسه: ص. 152

29. انظر ص 162 – 166 في هذا الاستدلال، بتصرف: المرجع السابق نفسه.

30. انظر ص. 167 – 173، بتصرف: المرجع السابق نفسه.

أقلية. ومعلوم أن كل الأقليات، كتابا كانوا أو غير كتاب، مستعملو اللغة أو سياسيون أو غير ذلك، يتصرفون بطرق مختلفة عن تصرف الأكثريات. ومن سلوك الأقلية النسائية التي بلغت مبلغ الرجل في استعمال اللغة وتوسّل الكتابة والقلم والنشر والتعبير والثقافة، أنهن يخشين ويخفن على ما حصلن عليه من لغة الكتابة كمكتسب، وهنّ، في خلال سعيهن غلى المحافظة عليه، يعكفن على حراسته، إلى حدّ أنّ طموحهن يتوقف، فتصير السلطة التي يمارسن من خلال المكسب صفرية، أي تساوي صفرا، بمعنى أنها لا تقدّم شيئا: لا وقع لها ولا أثر !

ويمكن، بحسب لعبة السلطة الصفرية، تصور المرأة الكاتبة، المُستعملة للغة، محكومة باستراتيجية البقاء والاستمرار والحفاظ على الوضع الكتابي اللغوي المتميّز، لذلك، فهي غالبا ما تكون مهووسة وخائفة ومضطربة وغير واثقة، وتجدها، في محاولة إخفاء الهوس والخوف والاضطراب وعدم الثقة بالنفس تتكلم، كما يتكلم الرجل، وتعبر كما يعبر، وتقرر كما يقرر، وبهذا تتحول إلى ذات غير ذاتها، ونفس غير نفسها، وتصبح مشوّهة الحركات والصور والتمثُّلات؛ تتخلى عن مهام البيت والزواج وتربية الأطفال ووظائف الحمل والولادة، بهدف الإخلاص لشيء واحد ووحيد، هو اللغة: لأجلها تتقمّص الذكر وتنزع الأنثى، بل إنا تحارب أختها الأنثى وقرينتها كما يحاربها الرجل: كل ذلك اقتداءً بالذكر وسعيا إلى أن تكون «هو» في كل شيء. وطبعا، حين يصير الإنسان غير نفسه، ويتخلى عن طبيعته، ويُصارع ذاته وأمثاله من بني جنسه الأنثوي، فإنه لن يكون قوي اللغة، ولا واثقا من نفسه، ولا متمكّنا، ولا متطوّرا، ولا مُجدّدا، ولا متقدّما، بل إنّه، كلما بلغ مستوى معينا من اللغة، عاد إلى درجة الصفر، وبقي فيها قابعا.

بهذا التحليل العام المُترجم للسلطة الصفرية التي تلعبها الأقلية من النساء، ممن حصلن على اللغة مكسبا، يُصنف محمد عبد الله الغذامي غادة السمان، من خلال قراءة في عقلية الأستاذة طلعت، بطلة الرواية، التي تحب كل ما يتعلق بالرجال، وتكره كل ما يتصل بالنساء. ولا يقتصر التصنيف على هذه الروائية، بل أيضا، سميرة المانع في «الثنائية اللندنية» وآمال مختار في «نخب الحياة»، وحتى أحلام مستغانمي في: «ذاكرة الجسد»؛ التي عادت في نهاية الرواية لترتمي في أحضان الرجل، رغم تجربتها المتفردة في تأنيث اللغة، كما سنرى فيما يلي.

4. تأنيث اللغة: تصور واعد

1.4. تأنيث اللغة لقاء بالضد

نعتبر تصور محمد عبد الله الغذامي الداعي إلى تأنيث اللغة تصورا واعدا، لأنه يمثل مخرجا لما يحيط بلغة المرأة وعنصر التأنيث والمؤنث من أحكام بالضعف والاستهزاء والاستخفاف والقمع والحط من كرامة النفس والذات النسائية؛ أي إن تأنيث المرأة للغتها، يعد خطة واستراتيجية ومنفذا فكريا ولغويا وسلوكيا وموقفا ورؤية، يمكن النساء من الخروج النهائي من قسرية الهيمنة اللغوية الذكورية.[31] ويعني تأنيث اللغة، فيما يعني، أن تستطيع المرأة استعمال اللغة كما يستعملها الرجل: بالدرجة نفسها من الإفصاح والتمثيل، حيث تجد لها مكانا في خزان اللغة المُكتنز بالرجال والفحولة. فالمراد من اللغة ذات الطبيعة المؤنثة أن تتكلم المرأة وتكتب وتعبر وتؤلف بلغة نسائية أنثوية متحررة من كل ضغط خارجي: لغة تكون المرأة فيها، وداخلها، ومن خلالها، هي نفسها، تحكي ذاتها وأنوثتها، وتروي أحاسيسها وتصوراتها وأفكارها، بلغة، تنتجها هي، حيث تصرف النظر عن لغة الرجل التي قد توقعها في التقليد أو الخوف أو الاضطراب. لقد كتب الرجل التاريخ كله، وذكّر اللغة، وذكّر الذاكرة، وطوّق الكلمات والألفاظ والتعابير والأساليب والأفكار والتقاليد والأعراف، بالقيود والحواجز. واليوم، صار على المرأة، رغم حداثة عهدها باللغة، أن تكسر الأطواق والحدود لتلتقي بضدها وتساويه في استعمال اللغة، وتوازيه في القدرة على التمكن من خفايا هذه الوسيلة الخارقة التي تعطي الجرأة والقوة، وتمكن من التطور والتقدم. فعند الغذامي، تأنيث اللغة هو «لقاء الضد بالضد». ويتطلب لقاء المرأة بضدها «الرجل» أن تؤنسن اللغة من جهتها، لتكون وسيلتها كما هي وسيلة صنوها الرجل. ولا يحيل التأنيث على السير ضد الأنوثة، بل البقاء داخلها، لأن الهروب منها يُفضي إلى عدم لقاء الضد؛ فأن تظل المرأة أنثى، وتكتب كأنثى، وتشق طريق الكتابة بلغة الأنثى، هو الذي يُمكّن من لقاء الضد، وإنجاز مشروع تأنيث اللغة، وإنهاء تاريخ من الظلم النحوي واللغوي والثقافي. إن غادة السمان، حين تتقمص الذكر وتكتب بلغته، فهي تهرب من نفسها، ومن ذاتها الأنثوية، إلى غير نفسها، وغير طبيعتها، وذلك على خلاف أحلام مستغنامي، فيما سنرى في الجزء الموالي.

31. بل قد تمكنهن من شنّ هجوم على مؤسسة الأدب الذكوري، وهدم الإرث النقدي الذكوري واللغة المستعملة نفسها: تلك اللغة التي استولى، عن طريقها الذكور على العالم، وبتوسّلها، استعمر الرجال النساءَ: انظر ص. 48 - 50 من ماجي هام Maggie Humm، ترجمة حسن ازريزي (2015).

2.4. من مظاهر تأنيث اللغة

يرى محمد عبد الله الغذامي أن أحلام مستغانمي، استطاعت في روايتها «ذاكرة الجسد» (1993) تأنيث اللغة، إذ قالت، واصفة لقاءها بضدها: «وليس أجمل من أن تلتقي بضدك»، وذلك لأنه «وحده قادر على أن يجعلك تكتشف نفسك»[32]. ويمكن تلخيص تأنيث هذه الروائية للغة من خلال ما يلي:

تحويل اللغة إلى فعل وفاعلية،

تمجيد اللغة والاحتفال بها.

يقصد بتحويل اللغة إلى فعل وفاعلية في رواية أحلام مستغانمي أن المرأة أصبحت صاحبة لغة وصاحبة موضوع، فهي هنا تكتب عن الرجل، وليس الرجل هو الذي يكتب عنها، هو مادتها، وليست هي مادته، هي الفاعلة، وهو المفعول. لقد أدخلت تاء التأنيث على الفاعل، وعلى ضمير المؤنث، وكتبت عن الرجل، وعن نفسها، بصفتها امرأة، وبلسان امرأة، وبقلم امرأة، وبهذا يقول محمد عبد الله الغذامي، أعادت الأصل إلى أصله وجعلت اللغة أنثى وصحّحت خرق النحاة القائل: «الأصل في اللغة التذكير» وصاغت اللغة من وجهة نظرها، وألفت ودوّنت، وحوّلت الرجل إلى مادة لغوية انكتابية، كانت فيها، وداخلها، هي السيدة والسلطانة، وفاعلة اللغة وصانعتها ومؤنثتها، إلى حدّ أن حبكة الرواية جاءت في اللغة، لا في الأحداث.[33]

أما تمجيد اللغة والاحتفال بها، فيعد، بدوره، مظهرا من مظاهر تأنيث اللغة في الرواية، لأن الكاتبة جعلت من العنصر اللغوي موضوع عشق وسحر، واعتبرته هو الذاكرة والأم والوطن والقوة والنضال والحرية والهيمنة والسلطة والأرض. يقول محمد عبد الله الغذامي: «لن نخطئ إن قلنا إن الرواية لم تكتب إلا من أجل تمجيد اللغة والاحتفال بها. ومنذ ما قبل النص كان الإهداء إلى (مالك حداد شهيد اللغة العربية وعاشقها الذي أقسم بعد استقلال الجزائر ألا يكتب بلغة ليست لغته، هو أول كاتب قرر أن يموت عشقا للغة العربية)»[34]. في هذا الإطار، مجدا بطلا الرواية العربية واحتفلا بها، وجعلاها رمز كل شيء: رمز الأنثى نفسها، ورمز التحرر من الاستعمار الفرنسي، والاستعمار الذكوري و«رمز استعادة أنوثة اللغة الضائعة»[35]. إن احتفال لغة الكاتبة باللغة وتمجيدها، قرن هذه اللغة بكل ما هو هوّي وتحرّري، وأبرز لغة مؤنثة جديدة، تعرفها صاحبتها وتتقن الكتابة بها، وأظهر صورة لم تكن هي: «المرأة اللغةُ، واللغةُ المرأةُ». مجدت (أحلام)

32. انظر ص. من الرواية: 77، نقلا عن المرجع السابق نفسه: ص. 200
33. انظر ص. 184: المرجع السابق نفسه.
34. انظر ص. 193: المرجع السابق نفسه.
35. انظر ص. 194: المرجع السابق نفسه.

اللغة واحتفلت بها، لأنها صارت مالكة لها ومتحدة معها، لقد صارت اللغة في الرواية «امرأة»، ولو لم تواجه البطلة البطل بلغتها الخاصة، لغة الأنثى المؤنثة، لما شعر هذا البطل بالضياع، وقال: «تبعثرت لغتي أمام لغتك التي لم أكن أدري من أين تأتين بها»[36]. وهكذا، يأخذ تمكّن المرأة من تمجيد اللغة والاحتفال بها، معنى القدرة على إعادة تركيب اللغة، وإدخال الذكر إلى ليل الحكي، وإخراج الأنثى إلى نهار الكتابة وضوء اللغة، وإلى لغة التأنيث المعبِّرة عن الذات الإنسانية، بعد أن كانت لغة غزل ذكورية.

5. خاتمة

حاولنا، في هذه المقالة، طرح قضايا تتصل بلغة المرأة، على مستوى مقاربة خصائص هذه اللغة، من جهة، وبالنظر إلى المواقف من اللغة النسائية، من جهة أخرى. ناقشنا مقاربة الهيمنة والاختلاف والتفسير الاجتماعي للتباين اللغوي. اعتبرنا المقاربات الثلاث واردة، بصفة عامة، كونها تستند، في التحليل، إلى وقائع التاريخ والثقافة والمجتمع. أما مقاربة الضعف، فتبين من الأمثلة، المُجسدة لضعف لغة المرأة، أنها تقوم على الأوهام والأغلاط والافتقار للدليل التجريبي. وبيّنا، أن المقاربة التجريبية؛ أي تلك التي ترصد لغة الجنسين وتقارن بين الخصائص بالنظر إلى ما ينتجان فعلا، تعاني من تضارب النتائج بسبب النقص في العينات النصية المُتفحصة، وعدم اعتبار اللغة الوظيفية.

أما المواقف، فمنها ما يصدر عن الكاتبات المناقشات لمصطلح: «كتابة نسائية» ومنها ما تتضمنه كتب النحو عن التأنيث، ومنها ما يطوّره الباحثون المهتمون بمشاكل لغة المرأة والحلول المناسبة لها.

بينا أن من الكاتبات من يقر وجود لغة نسائية خاصة، انسجاما مع الخصوصية الأنثوية، ومنهن من يرفضها، لاقترانها بالدونية والاحتقار، ومنهن من يقبلها بشرط تخليصها من عوامل الاضطهاد الاجتماعي. أما النحاة، فأغلب ما يخصصون به المؤنث والتأنيث يتعارض مع الواقع ويطمح للانسجام مع القواعد المتحيّزة للمذكر. وأما الباحثون العرب، وبالتحديد محمد عبد الله الغذامي، فيطور عددا من الحواجز المصوغة ضد لغة المرأة، ويفسر ما ينتج عنها من قلق، يتسبب في إنتاج المرأة للغة مذكرة، بدلا عن لغة مؤنثة، ومن ثم اعتبرنا حل التأنيث مسارا واعدا.

36. انظر ص. 88 من الرواية: نقلا عن المرجع السابق نفسه: ص. 197

المراجع المعتمدة

- ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله، **شرح ألفية بن مالك**، الجزء الثاني، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1964

برهومة، عيسى، **اللغة والجنس، حفريات لغوية في الذاكرة والأنوثة**، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2002، الموقع:

https://www.kutub-pdf.net/book/5139

- بنمسعود، رشيدة، **الكتابة النسائية: بحثا عن إطار مفهومي**، الموقع:

http://www.minculture.gov.ma/index.php/2010-01-11-01-40-04/etudes-essaie/259-rachida-ben-massoud-ecritu

- خربوش. ثريا. **نحو تعليم اللغة العربية وثقافتها**، ضمن:

Sciences, Langage et Communication, [S.l.], v. 1, n. 3, nov. 2017. ISSN 2458-7095. Disponible à l'adresse: http://revues.imist.ma/index.php?

- الغذامي، عبد الله محمد، **اللغة والمرأة**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، 2006، محمّل من على الموقع:

https://www.kutub-pdf.net/book/5139

- الغذامي، عبد الله محمد، **ثقافة الوهم، مقاربات حول المرأة والجسد واللغة**، الطبعة الأولى، الناشر: المركز الثقافي العربي، 1998، محمّل من على الموقع:

https://www.kutub-pdf.net/book/5139

- الكيال، باسمة، **تطور المرأة عبر التاريخ**، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، 1981، الموقع:

https://www.goodreads.com/book/show/18245253

- معمري، أحلام، **إشكالية الأدب النسوي بين المصطلح واللغة**، ضمن: **مجلة مقاليد**، العدد الثاني، ديسمبر 2011، محمّل من على الموقع:

http://vb.arabsgate.com/showthread.php?t=561699

- مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، الطبعة الثالثة، دار عمران، مصر، 1985

- هام، ماجي، **النقد النسوي المعاصر**، ترجمة: ازريزي، حسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، 2015

- Coates, Gennifer, **Women, Men and Language, A sociolinguistic Account of Gender Differences in Language**, Routledge LONDON And NEWYORK, third edition,2013, https://www.researchgate.net/file.PostFileLoader.html?id=585a3d30217e2019bd148321&assetKey=AS

-Xiaolan,Lei,*SeximinLanguage*,in:**GournalofLanguageandLinguistics**,Volume5Number12006ISSN 1475 – 8989, SITE: https://pdfs.semanticscholar.org/d03a/fdaa103c8526b75523cdadbacfd4a4d27041.pdf

- Xiofang, Xia, Gender Differences in Using Language, Theory and Practice in Language Studies, Vol. 3, No. 8, pp. 1485-1489, August 2013, Site: http://www.academypublication.com/issues/past/tpls/vol03/08/28.pdf

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019